الفصل الثاني
عهد نور الدين زنكي وسياسته الداخلية
المبحث الأول
اسمه ونسبه وأسرته وتوليه الحكم

هو نو الدين محمود زنكي، صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد - عماد الدين - زنكي بن الأمير الكبير آقسنقر التركي السلطاني الملكشاهي مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمس مئة [١] وهم ينتسبون إلى قبيلة ساب يو التركية ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة نور الدين وشبابه ولكنها جميعاً تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده وأن والده كان يقدمه على إخوانه ويرى فيه مخايل النجابة[٢]، ولما جاوز الصبا لزم والده حتى مقتله ٥٤١هـ/١٠٤٧م [٣] وكانت حياة عماد الدين في فترة حكمه الموصل من ٥٢١هـ - ٥٤١ هـ مدرسة عليا شاملة لجميع أنواع المعارف الإنسانية في مجالات العلوم السياسية والإدارية والعسكرية بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية وقد جمعت مدرسة الحياة الكبرى التي عاش فيها نور الدين بين الأسلوب النظري والتطبيقي [٤] وقد تزوج نور الدين عام ٥٤١هـ الزواج الذي لم تكن من ورائه جارية ولا سرّية من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق، بعد أن ترددت المراسلات بين الرجلين واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما وكتب كتاب العقد في دمشق، بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال وما إن تم إعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائداً وبصحبته ابنة معين الدين [٥]، وخلف نور الدين من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، من جراء مرض ألم به عام ٥٧٧هـ وأحمد الذي ولد بحمص عام ٥٤٧هـ تم توفي في دمشق طفلاً [٦] وقد ذكر ابن منير في أشعاره تهنئته لنور الدين بمولده الجديد فقال:

وجئت بأحمد فملأت حمداً ::: موارد كان معدنها عذاباً
تهلل وجه مُلك يوم أهدت ::: قوابله لك المَلِك اللبابا
شبيهك لا يغادر منك شيئاً ::: سنا وحياً وبذلاً واستلابا
قسيم الحمدِ إلا أنّ حرفاً ::: من اسمك زاد للمعنى منابا
ألا لله يوم فُرّ عنه ::: وركب نصّ بالبشرى الرّكابا [٧]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥٣١/٢٠).
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص ٧٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٧٣.
(٤) المصدر نفسه ٨٨، ٨٩.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ - ٢٨٩ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٨.
(٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤١٨.
(٧) كتاب الروضتين (٢٢١/١).

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الأكبر، فكانت زوجته تكثر القيام في الليل، ونامت ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حينذاك للقيام، ومنح الضاربين أجراً جزيلاً [١]، وصفها المؤرخون بأنها كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم [٢]، وقد ذكر ابن كثير في أحداث عام ٥٦٣هـ: وفي شوال وصلت امرأة الملك نور الدين محمود زنكي إلى بغداد تريد أن تحجَّ من هناك، وهي السَّتُّ عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنُر، فتلقاها الجيش ومعهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات وأُكرمت غاية الإكرام [٣] وعرف عن الصالح إسماعيل تقواه العميقة والتزامه الأخلاقي المسؤول حتى رفض الأخذ برأي الأطباء في شرب شيء من الخمر عندما ألحّت عليه علة القولنج التي أودت بحياته. وقال: لا. حتى أسأل الفقهاء، فلما أفتوه بالجواز لم يقبل وسأل كبيرهم: إن الله تعالى قرّب أجلي، أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا فأجابه: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرّم علي [٤].

أولاً: انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل عماد الدين زنكي:

عندما قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ كان ابنه الأكبر سيف الدين غازي مقيماً بشهرزور وهي إقطاعه من قبيل أبيه بينما كان نور الدين محمود وهو الابن الثاني لعماد الدين مع أبيه عند قلعة جعبر وبعد أن شهد مصرع أبيه أخذ خاتمه من يده وسار ببعض العساكر إلى حلب، فملكها هي وتوابعها في ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ ١١٤٦م [٥]، وكان عمره ثلاثون سنة كما كان مع زنكي أيضاً على قلعة جعبر الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقي، وكان زنكي يظهر أنه يحكم البلاد باسمه مُنذ سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م حيث اصطحبه معه إلى الموصل بأمر من السلطان محمود [٦] وقد ذكر المؤرخون أن الملك ألب أرسلان حاول أن يحل محل زنكي في ملك البلاد وأن يبعد أولاده عنها، فجمع العساكر وأعدّ العدة للتوجه إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني [٧]، قام بدور كبير في الحفاظ على الدولة الزنكية وإبقائها في أيدي أولاد صاحبه وولي نعمته عماد الدين زنكي، فما إن شعر بقصد الملك ألب أرسلان حتى بادر بالاتصال بالأمير صلاح الدين محمد الياغسيّاني، حاجب عماد الدين متناسياً ما كان بينهما من خلاف، فاتفقا على حفظ الدولة لأولاد زنكي وإبعاد الملك ألب أرسلان السلجوقي [٨] عنها حيث أرسل الوزير جمال الدين إلى

(١) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٤٩.
(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٩.
(٣) البداية والنهاية (٤٢٥/١٦).
(٤) الباهر ص ١٨٢ نور الدين محمود ص ٤٩.
(٥) زبدة حلب (٢٨٥/٢) الحياة في العهد الزنكي ص ٤٢.
(٦) الباهر ص ٧١، ٧٢ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.
(٨) نهاية الأرب نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٣.

صلاح الدين الياغسياني يقول لـه: إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقاً يبقى فيه الملك في أولاد صاحبنا، ونهر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أولـه، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرْق ولا يمكن رقعه، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه [١] وكان أول عمل قام به جمال الدين، وصلاح الدين أن أرسلا رسولاً على وجه السرعة إلى زين الدين علي كُجَك نائب زنكي في الموصل يخبراه بما حصل لزنكي فسارع سيف الدين غازي للحضور من شهرزور إلى الموصل لتسلم الحكم فيها وتسلمها قبل أن يتمكن ألب أرسلان السلجوقي من الوصول إليها [٢]، أما الملك ألب أرسلان السلجوقي فقد تكفل الوزير جمال الدين الأصفهاني بإلهائه ومخادعته ريثما تستتب الأمور لسيف الدين غازي في الموصل، وظلّ يتنقل من مكان إلى آخر بالجزيرة حتى تفرق معظم أصحابه عنه، ثم اتجه إلى الموصل فقُبض عليه وأودع السجن ولم يأت لـه ذكر بعد هذا التاريخ [٣]. وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب وما جاورها من مدن الشام أما أخوهما نصرة الدين أمير أميران [٤]، فقد حكم حرّان تابعاً لأخيه نور الدين محمود، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين مودود لا يزال في رعاية أخيه سيف الدين غازي بالموصل. وكان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين وأدَّى الوضع الجغرافي الشرقي إلى أن:

- يرث غازي الأول المشاكل الداخلية، مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في العراق.

أ - يحمي حدود الإمارة من غارات سلاجقة فارس.

ب - يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تعديات سلاجقة الروم والداشمنديين والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

أما في القسم الغربي، فقد ورث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين الممثلتين بأتابكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

ثانياً: ترتيب أوضاع البيت الزنكي:

كان من الطبيعي أن تنشأ بين البيتين الزنكيين في كل من الموصل وحلب علاقات وثيقة، بفعل الروابط الأسرية من جهة، واشتراك آل زنكي بعامة بهدف واحد، وهو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وكانت حلب تشكل، بالنسبة للموصل، خط الدفاع الأول وصَّمام الأمان ضد أي خطر تتعرض لـه، فنشأت نتيجة لذلك علاقات جيدة بين سيف الدين غازي الأول، صاحب الموصل،

(١) الباهر ص ٨٤، ٨٥.
(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩١ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤.
(٣) مفرج الكروب (١٠٩/١).
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤.

وأخيه نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم بين الأمراء الذين توالوا على حكم الموصل بعد غازي الأول، إلا أن هذه العلاقات الودية القائمة على التعاون والدفاع المشترك، شهدت في بعض الأوقات فتوراً عاماً، كان لا يلبث أن يتلاشى لتعود المحبة والألفة [١]، فبعد استقراره في الموصل والجزيرة وبعض مناطق بلاد الشام كحمص والرحبة والرقة، كان على سيف الدين غازي الأول أن ينسِّق مع أخيه نور الدين محمود في حلب، ويتعاون معه لاستكمال سياسية والدهما القاضية بالتصدي للصليبيين، مُدركاً في الوقت نفسه أهمية هذا التعاون، خشية أن يستغل أعداء الأسرة فرصة انقسام الإمارة الزنكية لمهاجمتها، بالإضافة إلى الظهور، بمظهر القوة أمامهم، لذلك رأى ضرورة الاجتماع بأخيه بين وقت وآخر لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية بسبب توزيع الإرث الزنكي، ويبدو أن العلاقات بين الأخوين تعرضت لأزمة عابرة عقب وفاة والدهما بدليل أن سيف الدين غازي الأول أرسل إلى أخيه نور الدين محمود يدعوه للحضور إليه إلا أن صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معلِّلا تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين [٢]، وقد كانت هناك مجموعة من الأسباب ساهمت في الفتور في العلاقة بين الأخوين وهي:

أ - رأى سيف الدين غازي الأول أنه كان يجب على أخيه الوقوف إلى جانبه عندما تعرض الحكم الزنكي في الموصل لخضة سياسية أثارها الملك ألب أرسلان السلجوقي بهدف الاستيلاء على السلطة، وذلك حتى تستقر الأوضاع لهما في البلاد، ثم يستأذنه في العودة إلى بلاد الشام.

ب - عدّ سيف الدين غازي الأول تصرف أخيه نور الدين محمود بعد مقتل والدهما أمام قلعة جَعْبَر خروجاً على التقاليد الأسرية عند القبائل التركية التي تقضي بأن تكون السيادة للابن الأكبر [٣].

ج - رأى سيف الدين غازي الأول في تصرف أخيه انفصالاً واضحاً عن الدولة الزنكية، لأن استئثار نور الدين محمود بأملاك الأسرة في حلب يعني تكوين حكم انفصالي عن دولة الأتابكة في الموصل [٤] دفعت هذه العوامل سيف الدين غازي الأول إلى الإلحاح على أخيه نورالدين محمود للاجتماع به وتسوية الأمور بينهما، وقد تصرف صاحب الموصل بحكمة لإزالة أسباب التوتر، كما أنه لم يعارضه عندما استولى على الرها التي كانت تدخل في منطقة نفوذه بعد محاولة جوسلين الثاني استردادها من أيدي المسلمين في أواخر عام ٥٤١هـ/ ربيع الثاني ١١٤٧م والواقع أنه أرسل قوة عسكرية لمساندة أخيه لإنقاذ الرها المهدّدة، لكنها وصلت بعد أن نجح نور الدين محمود في استعادتها[٥]، وأخيراً حصل اللقاء بين الأخوين في الخابور. وفي هذا الاجتماع اعتذر نور الدين محمود لأخيه عن تأخره في الحضور، وأظهر له الطاعة والاحترام من جهته [٦]، ولشدة حذر نور

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٦٨، ١٦٩.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٥) الباهر ص ٨٧، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٧٠.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧٠.

الدين اشترط أن يكون الاجتماع ومع كل منهما خمسمائة فارس فقبل سيف الدين، وخرج نور الدين ومعه خمسمائة فارس، فرأى أخاه سيف الدين وليس معه إلا خمسة فوارس فتأكد من حسن نيته واقتربا وتعانقا وبكيا وقال له سيف الدين: من لي غيرك يا نور الدين ولمن أدخر الخير إن أسأت إلى أخي، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للخدمة وصفت الأمور بينه وبين أخيه [١]، وسكن روعه وعاد إلى حلب [٢]، حيث جمع عساكره وتجهَّز، ثم عاد للاستقرار في كنف أخيه ووضع نفسه تحت تصرفه، إلا أن سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده وقال له: لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنا، فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده [٣].

١- وفاة سيف الدين غازي الأول: استطاع سيف الدين ونور الدين أن يحلا المشاكل التي بينهم وتعاونا على البر والتقوى وكان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل جنبا إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين، وذلك في الدفاع عن دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م ونجاحهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق، ومن مظاهر التعاون أيضاً، اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العُريمة وطرد الصليبيين منه، كما كان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إنبّ، وفي فتح أفاميه سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م [٤]، إلا أن العهد لم يطل بسيف الدين غازي حيث توفي بالموصل في جمادي الآخرة من سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل [٥]، وكان رحمه الله جميل الصورة، وكان عمره نحوا من أربع وأربعين سنة وخلّف ذكراً رباه عمه نور الدين محمود وزوَّجه ابنة أخيه قطب الدين مودود بن زنكي، فتوفي ولد سيف الدين شاباً، وانقرض عقبه [٦]، وكان سيف الدين غازي جواداً كريماً شجاعاً وهو الذي بنى المدرسة الأتابكية بالموصل وقفها على الفريقين الحنفية والشافعية، بنى رباطاً للصوفية وكان مقصداً للشعراء، فقصده شهاب الدين الحيص وامتدحه بقصيدة قال فيها:

أتابكُ إن سميت في المهد غازيا ::: فسابقة معدودة في البشائر
وَفَيتَ بها والدِّينَ قد مال رؤقه ::: وصدّقتها والكفر بادي الشعائر

وقد أجازه سيف الدين بألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه، وسوى الخلع والثياب[٧].

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٧٢/١).
(٢) الباهر ص ٨٧ - ٨٨ تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧١.
(٣) الباهر ص ٩٢، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٧.
(٤) مفرج الكروب (١١٦/١).
(٥) مفرج الكروب (١١٦/١).
(٦) المصدر نفسه (١١٦/١).
(٧) كتاب الروضتين (٢٢٨/١، ٢٢٩).

وعزَّى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه سيف الدين بقصيدة منها:

وكـــان نظيـــرك غـــارَ الزمـــان ::: مـــن أن يـــرى لـــك فيـــه نظيـــراً
فـــدتك نفـــوسٌ بـــك اســـتوطنت ::: مـــن الأمـــن نـــوراً وقـــد كُـــنَّ بـــوراً
بقيـــت مُعـــزًّا مـــن الهـــالكين ::: تُـــوقَّى الـــرَّدَى وتـــوقَّى الأجـــورا
ومـــا نقـــص الـــدّهرُ أعـــدادكم ::: إذا شـــفَّ قطـــراً وأبقـــى بحـــوراً
ولـــو أنصـــف المجـــد موتـــاكم ::: لَخَـــطَّ لهـــم فـــي السَّـــماء القبـــوراً
حياتـــك أحيـــت رمـــيم الحيـــاة ::: وأَمْطَـــتْ مـــن الجـــود ظهـــراً ظهيـــراً [١]

وأما القيسراني فقد قال قصيدة في تعزية نور الدين:

مـــا أطـــرق الجـــوُّ حتـــى أشـــرق الأُفُـــق ::: إن أُغمـــد الســـيف فالصَّمصـــام يـــأتلق
دون الأســـى منـــك نـــور الـــدين فـــي حلـــب ::: مُملَّـــكُ ينجلـــي عـــن وجهـــه الغَسَـــقُ
كنـــت الشـــقيق الشـــفيق الغيـــب حـــين نـــوى ::: أراق مـــاء الكَـــرَى مـــن جفنـــك الأَرَقُ
تلقـى الأسـى فـي لبـاس الصبـر فـي جُـنَنٍ [٢] ::: حصـــينةً تحتهـــا الأحشـــاء تحتـــرق
ومـــدة الأجـــل المحتـــوم إن خفيـــت ::: فـــإن أيامنـــا مـــن دونهـــا طُـــرُقُ
وإنمـــا نحـــن فـــي مضـــمار حليتهـــا ::: خيـــل إلـــى غايـــة الأعمـــال تســـتبق

إلى أن قال:

مـــا دام شمُســـكَ فينـــا غيـــر آفلـــةٍ ::: فالـــدِّين منـــتظم والملـــك مُتسَّـــقٌ [٣]

٢ – تولى قطب الدين مودود زنكي إمارة الموصل: اتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كُجك أمير الجيش على أن يخلف قطب الدين أخاه على الموصل، فأحضراه، وحلفا له الأمراء والعساكر في الموصل، وتسلّم جميع ما لأخيه سيف الدين غازي من البلاد التابعة للموصل [٤] وقد تعرضت العلاقات بين الموصل والشام في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة كادت تؤدي إلى اندلاع الحرب بين الأخوين لولا أن قطب الدين تدارك الأمر ووضع حدًّا لنزاعه مع أخيه نور الدين، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى أن بعض الأمراء في الموصل وأعمالها وعلى رأسهم المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد صاحب سنجار، راسلوا نور الدين ليتسلم البلاد بعد وفاة سيف الدين باعتباره أكبر سناً من أخيه قطب الدين [٥]، ويضيف ابن الأثير سبباً آخر دفع هؤلاء الأمراء إلى استدعاء نور الدين هو: كراهيتهم وحسدهم للوزير جمال الدين ولأمير الجيش زين الدين على كجك للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الموصل [٦]. وقد لقيت هذه البادرة قبولاً طيباً عند نور

(١) المصدر نفسه (٢٣٠/١).
(٢) مفردها جُنَّة: وهي الدرع.
(٣) كتاب الروضتين (٢٣٠/١).
(٤) الباهر ص ٩٤ زبدة حلب (٢٩٦/٢).
(٥) الباهر ص ٩٥ زبدة حلب (٢٩٦/٢) الحياة العلمية ص ٤٨.
(٦) الباهر ص ٩٥ الحياة العلمية ص ٤٨.

الدين، وطمع في ضم بلاد الجزيرة والموصل تحت ملكه ليتحقق لـه توحيد الجبهة الإسلامية في ظل قيادة موحدة وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين فجدّ نور الدين في السير وقطع الفرات متجهاً إلى سنجار فاستولى عليها[١]، وكان رد الفعل عنيفاً في الموصل بعد دخول نور الدين سنجار، إذ انزعج قطب الدين وأمراؤه المخلصون وعدّوا ذلك اعتداء مباشراً عليهم على اعتبار أن سنجار تابعة لهم فتجهز قطب الدين وخرج بعساكره نحو سنجار، فنزل بتل يَعُفر [٢] وأرسل جمال الدين الوزير، وزين الدين كجك أمير الجيش إلى نور الدين كتاباً ينكران عليه إقدامه على أخذ سنجار واعتدائه على أملاك أخيه قطب الدين مودود، وهدداه بقصده إن هو لم يرحل عن البلد، ولكن نور الدين لم يلتفت لتهديدهما ورد عليهما بقولـه: إنني أنا الأكبر وإني أحق أن أدبر أمر أخي لـه منكم وما جئت إلا لمَّا تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم، فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر من أيدينا وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم [٣]، أدرك الوزير جمال الدين محمد، وزين الدين على ما ينطوي عليه هذا الرد من أخطار، فأشارا على قطب الدين مودود بمصالحة أخيه والتنازل عن بعض المواقع في الشام والتي كانت تتبع الموصل مثل حمص، والرحبة والرَّقة [٤]، مقابل انسحاب نور الدين من سنجار والعودة إلى حلب، فوافقهما قطب الدين، وتمَّ الاتفاق بين الأخوين وانسحب نور الدين من سنجار محملاً بالكنوز التي كانت بخزائن سنجار في أيام أبيه [٥]، وقد بلغت العلاقات بين الأخوين درجة من التحسن جعلت نور الدين يقدم في عام ٥٥٤هـ (١١٥٩م) على اختيار قطب الدين ليخلفه في حكم بلاده عندما أحسّ بضعفه ومرضه، وقد أنفذ نور الدين إلى أخيه قطب الدين وفداً يخبره بالموقف وباتفاق الأمراء على توليته العهد بعده، وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام، فلما خرج قطب الدين مودود على رأس جيشه من الموصل، وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين وقيامه من مرضه، فأقام قطب الدين حيث هو، وأرسل وزيره جمال الدين محمد لمقابلة نور الدين محمود والوقوف على تطورات الموقف هناك فوصل الوزير دمشق في صفر سنة (٥٥٤هـ/١١٥٩م) واجتمع بنور الدين وأبلغه استعداد قطب الدين، ووضع إمكانياته في خدمته فشكره نور الدين على ذلك، وعبّر لـه عن شكره لمشاعر أخيه قطب الدين مودود [٦]. وعلى العموم كانت صلة نور الدين بإخوانه وثيقة يقول ابن الأثير في حقهم: إن الله سبحانه جمع فيهم من مكارم الأفعال، ومحاسنها، وحسن السيرة وعمارة البلاد، والرفق بالرعيّة إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها، يقول: أظن أنَّ القائل أرادهم بقولـه:

(١) الباهر ص ٩٥، ٩٦ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٨.
(٢) تل يعفر: ويقال: أعفر وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل.
(٣) الباهر ص ٩٦، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٩.
(٤) الرّقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان مسيرة ثلاثة أيام.
(٥) الباهر ص ٩٦ - ٩٧، كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٩.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٥٠.

هَيِّنـــون لَيِّنـــون أيســـار بنـــو يســـرٍ ::: سُـــوّاسُ مكرمـــةٍ أبنـــاءُ أيســـار
لا ينطقـــون علـــى العـــوراء إن نطقـــوا ::: ولا يمـــارون إن مـــاروا بإكبـــار [١]

* * *

(١) الباهر ص ١٥ نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ٥١.